مجلة كلية
الدعوة الإسلامية

العدد الثالث عشر
1996

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1425 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1996 أفرنجي

المنهج العلمي عند العرب

أبحاث منقودة

العامل النحوي في ميزان النقد

تراجم من الفكر الغربي

إسراف

أ. عَبْدُ اللَّطِيف أَحْمَد الشّويرف

الإسراف: مصدر الفعل الرّباعيّ المهموز «أَسْرَفَ»، ومعناه الغالب: مجاوزة حدّ الاعتدال والقصد، أو الإكثار من الشيء فوق قدر الكفاية المطلوب، أو الزّيادة على ما يقتضيه الحقّ والعدل، وهو يشمل كلّ الأمور، وليس خاصّاً بالإفراط في إنفاق المال والمبالغة في الملذّات، وإنْ كان هذا الإطلاق هو الأشهر والأكثر تداولاً.

ويكون الإسراف في الأمر المادّيّ كما يكون في الأمر المعنويّ؛ فمن الأوّل قولك: «أسرف فلان في الأكل» و«أسرف في استعمال الأدوية»، ومن الثّاني قولك: «أسرف فلان في ثورة غضبه» و«أسرف في التّعصّب لآرائه».

ومن المعاني الأخرى للإسراف التي أثبتتها المعاجم غير المعنى الغالب الذي ذكرنا: الخطأ، والغفلة، والجهل.

وقد ورد «الإسراف» وما اشتُقّ منه في القرآن الكريم ثلاثاً وعشرين مرّة[1].

(1) سورة النساء، الآية: 6، سورة آل عمران، الآية: 147، سورة طه، الآية: 127، سورة الزمر، الآية: 53، سورة الأنعام، الآية: 141، سورة الأعراف، الآية: 31، سورة الإسراء، الآية: 33، سورة الفرقان، الآية: 67، سورة غافر، الآية: 28، سورة غافر، الآية: 34، سورة المائدة، الآية: 32. =

و«السَّرَف» ـ بفتح السّين والرّاء ـ من معانيه مجاوزة الاعتدال والقصد مثل «الإسراف». ومنه قول العرب: «ذهب ماء الحوض سَرَفاً» أي فاض من جوانبه[2] لأنَّ الماء الفائض مجاوزة القدر الذي يملأ الحوض. وقال جرير:

أعطوا هنيدة يحدوها ثمانية ما في عطائهمو منٌّ ولا سَرَفُ[3]

ويرادف الإسراف «التّبذير» وهو مثله إضاعة المال وبعثرته في غير وجوهه المشروعة. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾[4].

ويتعدّى «الإسراف» وما اشتُقّ منه بحرف الجرّ «في»، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾.

وقد حُذِف الجارّ والمجرور في معظم الآيات اختصاراً لدلالة السّياق عليهما، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [سورة الأعراف، الآية:31]، أي ولا تسرفوا في الأكل والشّرب، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [سورة غافر، الآية:28]، أي مسرف في الكذب على الله، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة يونس، الآية:83]، أي من المسرفين في التعالي..

وجاءت آية واحدة في القرآن الكريم عُدِّي فيها الفعل «أسرف» بحرف «على»، وهي قوله تعالى في سورة الزّمر: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [سورة الزمر، الآية:53]. وقد عُدِّي الفعل «أسرفوا» في هذه

= سورة الأعراف، الآية: 81، سورة يس، الآية: 19، سورة الأنعام، الآية: 141، سورة الأعراف، الآية: 31، سورة يونس، الآية: 12، سورة يونس، الآية: 83، سورة الأنبياء، الآية: 9، سورة الشعراء، الآية: 151، سورة غافر، الآية: 43، سورة الزخرف، الآية: 5، سورة الدخان، الآية: 31، سورة الذاريات، الآية: 34.

(2) وأقرب الموارد من فصح العربية والشوارد» لسعيد الشرتوني، ج1 ص 513.

(3) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي، ج4 ص 2547 ـ كتاب الشّعب ـ

(4) سورة الإسراء: 26 ـ 27.

الآية الكريمة بحرف الجرّ «على» لتضمينه معنى الجناية[5]، أي «جنوا على أنفسهم»، أو «لأنّ الإكثار هنا من أعمال تتحمّلها النّفس وتثقل بها، وذلك متعارف في التّبعات والعدوان. تقول: (أكثرت على فلان)، فمعنى (أسرفوا على أنفسهم) أنّهم جلبوا لأنفسهم ما تثقلهم تبعته ليشمل ما اقترفوه من شرك وسيّئات»[6].

والإسراف في كلّ صوره وحالاته مذموم، ولو في استهلاك الحلال من الملذّات والشّهوات، لأنّ مجاوزة القصد والحدّ المعقول فيما أحلّ الله، يعود بالضرّر والأذى على المسرف في بدنه أو عقله أو نفسيّته أو دينه أو خلقه، ويعوّده على الاستخفاف بقيمة المال والاستهتار بمسؤوليّته، وقد يجرّه إلى الإفلاس والفقر، وقد يؤدّي به إلى التّرف الممقوت الذي يدمّره ويدمّر المجتمع من حوله.

ومن المقرّر شرعاً أنّ المسرف في ماله المبذّر لثروته يُعَدّ سفيهاً يُمنع من التّصرّف في ماله، ولا يُسمح له بالتّصرّف في المال إلاّ إذا ثبت رشده وتقديره لمسؤوليّة ما استخلفه الله فيه.

لذلك نهى الله عن الإسراف، وحَجَب محبّته عن المسرفين: «ولا تسرفوا إنّه لا يحب المسرفين»، ووصف بالإسراف عتاة الكفر وجبابرة الطغيان، فقال في حقّ فرعون: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، وقال في حقّ قوم لوط المجرمين: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الذاريات، الآيات: 33 ـ 34]، وجعل عاقبة الكفرة المسرفين جهنّم: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [سورة غافر، الآية: 43].

ولكون الإسراف مذموماً قبيحاً لا يوصف به إلاّ الخارجون عن طاعة الله، أطلق أهل الحجاز على مسلم بن عقبة بن رباح الْمُرّيّ الاسمَ: «مسرفاً». وكان مسلم هذا قائداً قاسي القلب ماكراً شديداً الضّغن، ولاّه يزيد بن معاوية قيادة

---

(5) «حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي»، ج 7 ص 344 ـ دار صادر ـ

(6) «تفسير التحرير والتنوير» للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ج 24 ص42.

الجيش الذي سيّره إلى المدينة المنوّرة للانتقام من أهلها الذين طَرَدوا عامله عليها وخلعوا بيعته، وكان مسلم إذ ذاك فوق التّسعين من عمره، فغزا مسلم المدينة، وأعمل فيها سيفه تنكيلاً وبطشاً، وأسرف في قتل أهلها ونَهْبهم في وقعة الحرّة، ولم يميّز في بطشه بين صغير وكبير، ثم أباح المدينة لعسكره ثلاثة أيام يعبثون فيها ويقتلون وينهبون ويفجرون، فسمّوه لذلك «مسرفاً» ذمّاً له ووَصْماً بجريمته المنكرة في حق «طيبة» وحق أهلها[7].

بقيت نقطة مهمّة نختم بها ونطرحها في السّؤال: هل الإكثار من الإنفاق في وجوه البرّ والخير إسراف؟

الجواب إنّه ليس إسرافاً، لأنّ الإسراف لا يكون إلاّ مذموماً، وهذا عمل محمود يعود على صاحبه بالأجر والمثوبة من الله، وبحسن الذّكر والأحدوثة والدّعاء له من النّاس، ويعود على المجتمع بالنّفع والفائدة، وقد قيل لأحدهم أكثر من الإنفاق في الخير: «لا خير في السّرف»، فأجاب: «لا سرف في الخير».

على أنّ الإكثار من الإنفاق في سبيل الله ووجوه البرّ والخير لا يكون إسرافاً بشرط ألاّ يعطي المنفق كلّ ما عنده ولا يمسك ما يسد حاجته وحاجة من يعول، لأنّه بذلك قد يترك أولاده مثلاً يتضوّرون جوعاً، وقد يدفعه إلى مذلّة السّؤال، وهذا تجاوز لحقّه وحقّ أولاده، وتفريط في واجبه نحو نفسه ونحوهم، وهو ما يندرج تحت مفهوم الإسراف المذموم.

وقد ذكر المفسّرون أنّ آية الأنعام: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ نزلت في ثابت بن قيس بن شمّاس، جذّ نخلاً له فقال: «لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسى وليست له تمرة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

وفي صحيح البخاريّ: «باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾. وقال النبيّ ﷺ: **«كلوا واشربوا والبسوا وتصدّقوا في غير إسراف أو مَخِيلَة»**. وقال ابن عباس: كُلْ ما شئت، والبس ما

(7) «الإصابة في تمييز الصّحابة» لابن حجر العسقلاني، ج 3 ص 493، 494 ـ دار صادر ..

شئت، ما أَخْطَأتْك اثنتان: سَرَف أو مخيلة»[8].

وعن سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه قال: كان النبيّ ﷺ يعودني وأنا مريض بمكّة، فقلت: لي مال، أوصي بمالي كلّه؟ قال: «لا»، قلت: فَالشَّطْر؟ قال: «لا»، قلت: فالثّلث؟ قال: «**الثّلث والثّلث كثير، أن تدعَ ورثتَك أغنياءَ خيرٌ من أن تدعَهم عالةً يتكفّفون الناس في أيديهم...**»[9] الحديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**خير الصّدقة ما كان عن ظهر غِنًى، وابْدَأ بمن تعول**»[10].

المراجع والمصادر

1 ـ القرآن الكريم

2 ـ «**المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**»، وضع: محمد فؤاد عبد الباقي ـ كتاب الشعب

3 ـ «**الجامع لأحكام القرآن**» للقرطبي ـ كتاب الشعب ـ.

4 ـ «**حاشية شهاب الدين الخفاجي على تفسير البيضاوي**» ـ دار صادر ـ.

5 ـ تفسير «**محاسن التأويل**» للشيخ محمد جمال الدين القاسمي.

6 ـ تفسير «**التّحرير والتّنوير**» للشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

7 ـ صحيح البخاري بحاشية السّندي.

8 ـ «**لسان العرب**» لابن منظور ـ دار لسان العرب ـ.

9 ـ «**ترتيب القاموس المحيط**» للشيخ الطاهر الزّاوي.

10 ـ «**المعجم الوسيط**»، إصدار: مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة.

11 ـ «**الإصابة في تمييز الصّحابة**» لابن حجر العسقلاني.

(8) «صحيح البخاري بحاشية السّندي»، ج4، ص23 ـ مطبعة إحياء الكتب العربيّة لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(9)و(10) المصدر السّابق، ج 3 ص 286.